

البوليفونية في رواية "شبح الكليدوني" لمحمد مفلح
Polyphony in the Novel "The Caledonian Ghost" by Mohamed Muflah

عائشة شناف¹ / نورالدين بن نعيمة²
Aicha Chenaf¹ / Noureddine Benaidja²

مخبر علوم اللسان.

جامعة عمار ثلجي بالأغواط (الجزائر)¹

مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة (الجزائر)²

University of Amar Telidji, Laghouat – (Algeria)¹

Centre of Research in Islamic Sciences and Civilization (Algeria)²

ch.aicha@ens-lagh.dz¹ / n.benaidja@crsic.dz²

تاريخ النشر: 2024/12/02

تاريخ القبول: 2024/11/16

تاريخ الإرسال: 2024/09/15

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة الموسومة بـ "البوليفونية في رواية شبح الكليدوني" لصاحبها "محمد مفلح" إلى إلماطة اللثام عن تظاهرات السمات الفنية للرواية البوليفونية في المتن الروائي الجزائري، ومحاولة إبراز الصوت الطاعني في الرواية الجزائرية ما بعد الكولونيالية، وذلك انطلاقاً من الواقع الجزائري المعيش بكل تناقضاته، إذ تحاول هذه الدراسة ربط هذا الراهن بالتاريخ الثوري المغيب، بحثاً عن الهوية الضائعة وسط التراكبات السياسية والاجتماعية والثقافية، فكانت رواية "شبح الكليدوني" رواية بوليفونية بالمفهوم ال(باختين)ي بامتياز، لانطوائها على عديد الشخصيات ذات الأبعاد الأيديولوجية المختلفة، والتي أبدت مواقفها ورؤاها الفكرية بكل حرية، وفق تعدد مثير في اللغات والأساليب وانطلاقاً من واقع المجتمع الجزائري. الكلمات المفتاحية: حوارية؛ بوليفونية؛ رواية؛ محمد مفلح؛ هوية؛ منفي.

Abstract :

This study, titled "Polyphony in the Novel *The Caledonian Ghost* by Mohamed Mouflih," aims to uncover the manifestations of polyphonic artistic features in this Algerian novel and to highlight the dominant voice in post-colonial Algerian literature. It draws from the lived Algerian reality with all its contradictions, as

* اسم المؤلف المرسل والبريد: ch.aicha@ens-lagh.dz عائشة شناف

the author attempts to link the present with the forgotten revolutionary history, searching for a lost identity amidst political, social, and cultural accumulations. *The Caledonian Ghost* is a quintessentially Bakhtinian polyphonic novel, as it contains numerous characters with diverse ideological dimensions, each freely expressing their viewpoints and intellectual perspectives through a rich multiplicity of languages and styles, all rooted in reality.

Keywords: Dialogism; Polyphony; Novel; Mohamed Mouflih; Identity; Exile



مقدمة

تعتبر الرواية الجنس الأدبي الأكثر شيوعاً في الساحة الأدبية، بالرغم من وصولها متأخرة عن باقي الأجناس الأدبية الأخرى، وقد منحت هذا الشيوع لكونها أكثر انفتاحاً على الواقع المعيش بكل تناقضاته، وضمتها لمجموعة من الأنساق الاجتماعية والسياسية والثقافية داخل وعاء فني وجالي قادر على استيعاب ومحاوره مختلف الخطابات الأخرى.

والمتتبع لشأن الرواية اليوم يجدها قد أصبحت ديوان العرب الجديد، لاستفادتها من كل الأجناس المجاورة لها القديمة والحديثة، ونهلها من شتى المصادر التي تسهم في غناها وثرائها، كما تسهم في الكشف عن أنماط حياة وتفكير مختلفة برؤى إنسانية، ولكن برؤى أيديولوجية متعددة. فهي الجنس الأدبي الأكثر قدرة على وصف وتصوير مشاهد المجتمع العربي بكل تحولاته المختلفة وصوره المتعددة، وسعيها الحثيث لفك شفرات هذا الواقع واستكناه جوهره، وذلك من خلال تصوير فني تخيلي إبداعي قادر على سلب وعي القارئ، والتأثير فيه بكل الوسائل.

كل ذلك جعل من الرواية محط بحث وتجريب من قبل الكتاب والنقاد الذين أسهموا بشكل فعال في بلورة مفهوم جديد للرواية، والتي أصبحت اليوم تعتمد على مختلف الأصوات والحوارات التي تبرز ذلك التنافس والتداخل بين مختلف الرؤى والإيديولوجيات، وقد كان للنقاد (ميخائيل ميخايلوفيتش باختين) (Mikhail Bakhtine) دور أساسي وإسهامات معتبرة في بلورة مفهوم الحوارية (Dialogisme) وتعدد الأصوات أو ما يسمى بـ"البوليفونية" (Polyphonie)، وذلك بعد دراسة أعمال (فيودور دوستويفسكي) في كتابه "شعرية دوستويفسكي"، ليشكل بذلك نظرية جديدة تعتمد بشكل أساسي على الحوارية وتعدد الأصوات في الرواية.

ومن هنا جاز لنا أن نطرح بعض الإشكالات في هذا البحث والتي من بينها: هل انطوت رواية «شبح الكليدوني» لصاحبها «محمد مفلح» على المقومات الفنية للرواية البوليفونية؟ وما هو الصوت الطاعني في هذا المتن الروائي الجزائري ما بعد الكولونيالي؟ وهل تحققت فيه حوارية (باختين)؟ كل هذه الأسئلة سنحاول الإجابة عليها من خلال هذه الدراسة التي تهدف إلى تحليل الدلالات التي ضمنها محمد مفلح لأصوات شخصياته في هذه المدونة، كما تسعى إلى إمطة اللثام عن الصوت الطاعني في الرواية الجزائرية ما بعد الكولونيالية، وذلك انطلاقاً من تسليط الضوء على الأبعاد البوليفونية والمبدأ الحوارية لـ (ميخائيل باختين).

وقد اعتمدنا في دراستنا على بعض آليات المنهج البنوي التكويني، هذا الأخير الذي يمكن من استكناه خبايا النصوص من جهة، والظروف المحيطة بها من جهة أخرى، وذلك عن طريق تحديد طبيعة البنيات السردية كالشخصيات وطبيعتها، والبنية الخطائية ذات البعد الحوارية، وربط كل ذلك بالسياق الاجتماعي. بالإضافة إلى تتبع الأبعاد النفسية للشخصيات بما تقيمه من علاقات متشابكة مع تلك البنيات. وقبل الخوض في دراستنا، والتي مفادها إبراز تظاهرات البوليفونية في رواية «شبح الكليدوني» لـ محمد مفلح، ارتأينا أن نبرز ملخص أهم أحداث هذه الرواية موضوع الدراسة.

1- ملخص أحداث الرواية:

يسرد لنا الروائي «محمد مفلح» من خلال روايته قصة بطله «محمد شعبان المنفي»، ذلك الموظف في قطاع الثقافة بمدينة غليزان، والذي حاصرتة عدة مشاكل، أشدها وقعا على نفسه، أزمة السكن التي كانت السبب الأكبر في تأخر زواجه إلى ما بعد الأربعين، وهو المشكل الرئيسي الذي يؤرق جميع سكان العمارة الخامسة من عمارات «ديار الورد» بحي «الربوة»، وهنا يظهر المشكل الثاني في معاناة بطلنا، وهو التلاعب بالعقار وكذب المقاولين واستغلالهم البشع للسكان المغلوبين على أمرهم، والذين انتظروا كثيرا على أمل ترحيلهم إلى سكنات لائقة بحي «برمادية»، ومن جهة أخرى إصرار الحاجة «صفية بنت شعبان البايك» (والدة محمد شعبان) على تزويجه من ابنة جارتها «كلثوم الوادية»، وهي المعلمة المتقبة «زولة»، مع رفض ابنها لموضوع الزواج على الإطلاق، وذلك بعد تعرضه للخيانة من طرف حبيبته «صليحة الحلواجي» التي غدرت به وتزوجت من رجل آخر وسافرت معه إلى العاصمة، تبرز مشكلة أخرى في حياة بطلنا المهنية وهي المضايقات التي يتعرض لها من طرف مديره في العمل... وسط كل هذا الركام من المعاناة يصير الشيخ «عبد القوي» (والد محمد شعبان المنفي) على ابنه في البحث عن ضريح جدّه «محمد المنفي» (وهو أحد قادة مقاومة لزرقي بلحاج)، والذي كبر وهو يسمع حكاياته من والده، ومن جدته «لالا نيتة الفلينية»، وكان لسنوات عديدة يشكك في تاريخ المنفي ويستهزئ به أثناء المناقشة مع والده، لكن تشاء الظروف أن يتغير رأي «محمد

شعبان» من الرفض والسخرية من هذا الموضوع إلى جدية غير معهودة عند بطل الرواية، وذلك بعد إعطائه ثلاث رسائل قديمة من طرف والده، كان قد كتبها والد جدّه «محمد المنفي»، وهو بمنفاه بكاليدونيا الجديدة، لتكون قراءته لها بمثابة انقلاب جذري في طريقة تفكيره في الموضوع، إذ يقرر فجأة البحث في تاريخ المنفيين، والاستعانة في ذلك بمعلمه القديم في مرحلة الابتدائي «عاشور الزكري» الذي حفّزه كثيرا للبحث والكتابة في تاريخ المنطقة المغيّبة والمهملة من طرف المؤرّخين، مما أثار سخط البطل الذي قرّر البحث عن ضريح جدّ والده المقاوم «محمد المنفي» لتبدأ رحلة البحث الشاقة الممتعة، والتي تنتهي بإيجاده له في منطقة "غليزان" بالغرب الجزائري، ودفنه لوالده الذي أمّله الموت ليسمع بشارة ابنه بإيجاده للضريح بعد رحلة البحث الجادة، قرب ضريح جدّ والده وتحقيقه لأمنيته التي أفنى حياته ينشدها.

تتسارع الأحداث بعد ذلك، ليجد «محمد شعبان» نفسه محاصرا بمشاكل أخرى جديدة، منها طرده من منصب عمله، وتعرضه لمضايقات من أخته وابنها في مسكنه الجديد، بعد طردها من السكن الوظيفي هي وأسرتهما وزوجها المقعد، ليجد نفسه مظلوماً إلى بيع سيارته وقطعة الأرض الوحيدة التي امتلكها في حياته، ويقرر السفر إلى كاليدونيا الجديدة لمعاينة تاريخ المنفيين عن قرب في رحلة البحث عن المجهول، عند فتاته «حليمة كناك» إحدى صديقاته على الفايكس بوك، التي لها علاقة بتاريخ المنفيين، والتي طالما دعتة إلى زيارتها في مزرعتها بكاليدونيا الجديدة.

2-المبدأ الحوارية والبوليفونية عند باختين:

يعتبر (ميخائيل باختين) من أبرز النقاد الذين تركوا بصمتهم على الساحة النقدية، بفضل مجهوداته في ميدان البحث و التجديد في آليات دراسة الرواية، إذ يعود له الفضل في تأسيس مبدأ الحوارية الذي أحدث نقلة نوعية في مسيرة النقد الروائي، حيث دعا في آرائه النقدية إلى دراسة الرواية وفق آليات محدّدة، تعتمد على مبدأ الحوارية، وهذا ما جعل نظريته النقدية محل اشادة كبيرة من قبل النقاد الأدبيين والمفكرين، إذ يقول (تريفيتان تودوروف) (Tzvetan Todorov) الذي أفرد كتابا لباختين وحواريتته: "لا يوجد تعبير لا تربطه علاقة بتعبيرات أخرى، وهذه العلاقة جوهرية تماما ... والمصطلح الذي يستخدمه (باختين) للدلالة على العلاقة بين أيّ تعبير والتعبيرات الأخرى هو مصطلح الحوارية، ولكن هذا المصطلح المفتاحي، كما يمكن أن يتوقع مثقل بتعددية مركبة في المعنى..."¹

ف(باختين) إذاً حسب رأي (تودوروف) يرى بأنّ الحوارية تتمثل في تلك العلاقة التي تربط أيّ تعبير بتعبيرات أخرى سابقة، فالمتكلم حين يتكلم أو الكاتب حين يكتب، فإنّه حتّى محكوم بمنظومة من الكلام أو الخطابات المنتجة قبله من طرف أشخاص سابقين، والتي تؤثر بدورها في خطابه المنجز آتيا، وهو اقتناع كامل من (باختين) بصعوبة التفرد بإنجاز خطاب مستقل ليس له جذور، لأنّ المتكلم ليس آدم على حدّ تعبيره²، فلا

يوجد للكاتب خطاب مباشر إلا وفيه الكثير من رواسب كلام الآخرين، "التي تتشكل من خطابات التي تحتفظ بها الذاكرة الجمعية (الأشياء المألوفة والعادية والأنماط والأشياء المقولبة) (Stereotypes) وكذلك الكلمات الاستثنائية. وهذه الخطابات هي تلك الخطابات التي ينبغي لكل فرد متلقظ أن يوضع نفسه بالقياس إليها"³ وقد خلص (باختين) إلى هذا الاستنتاج بعد دراسة مطوّلة لأعمال الأديب الروسي الشهير (دوستوفسكي) (dostwivski)، الذي يرى فيه أنّه خالق الرواية البوليفونية (المتعددة الأصوات) التي تتعدّد فيها الأصوات والشخصيات وتتجاوز بينها تما يولّد تعدّدا في المنظورات السردية، والرؤى الإيديولوجية والأساليب واللغات والرواة⁴، وهذا عكس الرواية الكلاسيكية أحادية الصوت التي يهيمن فيها صوت المؤلف وإيديولوجيته حتى نهاية الرواية، دون أن يفسح مجالا للشخصيات المتحاورّة أن تعبّر عن مكوناتها بحرية.

إن (ميخائيل باختين) بآرائه النقدية فتح مجالا أوسع للرواية الجديدة من خلال دراسة الأصوات الحوارية إذ يقول في كتابه «شعرية دوستوفسكي»: "إنّ الرواية المتعددة الأصوات ذات طابع حوارى على نطاق واسع، وبين جميع عناصر البنية الروائية، توجد دائما علاقات حوارية، أي أنّ هذه العناصر جرى وضع بعضها في مواجهة البعض الآخر، مثلما يحدث عند المزج بين مختلف الألحان في عمل موسيقي (Counterpoint)، حقّا إنّ العلاقات الحوارية هي ظاهرة أكثر انتشارا بكثير من العلاقات بين الردود (Replications) الخاصة بالحوار الذي يجري التعبير عنه خلال التكوين، إنّها ظاهرة شاملة تقريبا، تتخلّل كل الحديث البشري وكل علاقات وظواهر الحياة الإنسانية، تتخلّل تقريبا كلّ ماله فكرة ومعنى."⁵

وقد نقل (باختين) مصطلح البوليفونية من عالم الموسيقى إلى عالم النقد ويقصد بالبوليفونية (polyphonie) لغة تعدّد الأصوات، وقد أخذ هذا المصطلح من عالم الموسيقى، ليتمّ نقله إلى حقل الأدب والنقد...⁶ بطريقة مقصودة، حيث يعني في مجال الموسيقى التناسق القائم بين الأصوات (أو المقامات الموسيقية المختلفة في النغم الواحد). وكان (باختين) هنا يستبدل الخطوط النغمية في المقطوعة الموسيقية بالإيديولوجية في الخطاب الروائي، ومن هنا جاء تخصيصه لإبداع دوستوفسكي بهذه التسمية، لأنّه يمثل قفزة نوعية في ميدان الجنس الروائي خاصة على مستوى البنية الفنية.

وقد ربط (باختين) بين مصطلحي الحوارية والبوليفونية، حتى صعب على النقاد الفصل بين المفهومين، فإذا كانت البوليفونية هي تعدّد الأصوات والشخصيات داخل المتن الروائي، فإنّ الحوارية هي تحاور تلك الأصوات والشخصيات فيما بينها، مما يبرز ذلك التباين والتنوّع في المنظورات والرؤى، لأنّ "العمل الروائي يتشكل من مجموعة من الأصوات والخطابات التي تتحاور متأثرة بمختلف القوى الاجتماعية من طبقات ومصالح فئوية وغيرها"⁷، وبالتالي فالرواية البوليفونية هي رواية حوارية تعدّدية لأنّ الطابع الحوارى للغة والأفكار يعدّ محدّدا

رئيسيا من محدّدات البوليفونية في الرواية، والتي تمثّلت في عدّة سمات فنية سنحاول إبرازها من خلال مدونة «شبح الكلدوني» لمحمد مفلح :

1-2- تعدّد الشخصيات والأصوات :

تعتبر الشخصية من أهمّ الركائز التي يبنّي عليها العمل الروائي، فمن غير الممكن صياغة رواية دون شخصية واحدة على الأقل تهض بأحداث الرواية وتناميها، سواء أكانت هذه الشخصية التخيلية مستوحاة من الواقع، أو كانت من وحي خيال المؤلف، وفي كلتا الحالتين تبقى الشخصية الروائية شخصية تخيلية أنشأها الروائي لتقوم بوظيفة فنية وايدولوجية.

وعند البدء بدراسة رواية «شبح الكلدوني» لمحمد مفلح نجد أن هذه الرواية تزخر بكم هائل من الموضوعات المتنوعة التي يمكن حصرها في (الهوية - صراع الذات - الحرية والنضال - استلهام التاريخ - البيروقراطية - أزمة السكن - الجنس - الهروب من الواقع...)، ولتجسيد كل هذه المواضيع يستوجب تعدّدًا في الشخصيات وتنوّعها، حيث تبرز الشخصية البطلة ممثلة في «المحمد شعبان المنفي» إلى جانب عدّة شخصيات ثانوية (الأم، الوالد، الجارة كلثوم الوادية وابنتها، الجدة النبية الفليتنية، المدير قادة الشريك، حمّو منجل، غنّام ولد اللّبة، عمّار الحر، عبد الحليم الوقّادي، بضافي المايدي، عاشور الزكري، فتحي فكّاك، صليحة الحلواجي، عقيلة الكاف، حلّية كنانك، سالم الحواس، عيشوش الواشمة، هجيرة الشمعة، سليمان الغشّبي...). هذا الثراء في الشخصيات يجعل المدونة نصا ثريا متعدد الأصوات والأيدولوجيات، مما يتيح للقارئ فسحة النظر لتلك القضايا الاجتماعية والسياسية من زوايا مختلفة.

وإذا ما أردنا معرفة وتصنيف أبرز شخصيات رواية «شبح الكلدوني» من خلال تتبع تفاعلها داخل أحداث الرواية والتعبير عن ذاتها ومكنوناتها ومنطلقاتها الفكرية ومواقفها الإيدولوجية وكذا كيفية رسم الكاتب لملاحمها نجد:

- شخصية المحمّد شعبان المنفي: الشخصية المحورية في الرواية، شخصية مثقّفة تعمل بدار الثقافة، تجتاحها رغبة جامحة في الغوص في أعماق التاريخ الثوري لأجداده واستلهام عبقه الزاهر بمحاولته لكتابة تاريخ الجزائريين المنفيين من طرف الاستعمار الفرنسي إلى جزيرة كاليدونيا الجديدة بالقرب من أستراليا، ذلك التاريخ المغتّب قصدا من طرف المستعمر الفرنسي، لكن الشيء الذي أرقّه هو البحث عن إجابة صريحة عن سبب إهمال هذا التاريخ من طرف المؤرّخين الجزائريين.

وإذا ما تعمّقنا أكثر في هذه الشخصية نجد كذلك أنها شخصية مضطربة، انغزالية، وهي نموذج للمثقف المنعزل الذي يجد صعوبة في الاندماج مع المجتمع خصوصا بعد خيانة حبيبته «صليحة الحلواجي» التي غدرت به و «فوّت مع المهندس دحمان الجزيري مخلّقة جرحا عميقا في ذاته القلقة، زهد في الزواج ثمّ كرهه⁸، إلى كرهه لوظيفته بسبب

تعتف مديره في العمل الذي حمّله ما لا يطيق، ومّا عمّق الشرخ أيضا في ذاته الضائعة ما عاشته البلاد من انزلاقات خطيرة على جميع الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية زمن العشرية السوداء وما خلّفته من دمار نفسي في نفوس الجزائريين، امتدّت آثاره إلى اليوم "ما أتّسع حياة يسودها العنف الهيجي، والضحّة عاجز عن مواجهة القتل، يزداد قلقلًا كلّما تذكّر تلك العشرية اللعينة التي قتل فيها بعض معارفه وجيرانه مخلفة جراحا عميقة..."⁹، وتطفو على السطح مشكلة أيّ مواطن من العالم الثالث يريد سكنا لائقا يضمن له معيشة كريمة، كلّ هذا الركام من الهزّات والمآسي بالإضافة إلى ما سميّ بالربيع العربي، كان له الأثر البالغ في اضطراب شخصية بطلنا وتناقضها، وتضارب هواجسها وإحساسها بمنفى داخلي ولد من رحم المعاناة والتهميش اللذان يتخطّط في لوعتها .

-شخصية الوالد (الشيخ عبد القوي) : شخصية مثزّنة ذات مرجعية دينية، فهو "من مريدي الطريقة الحضريّة، كلّ يوم جمعة بعد صلاة العصر، يتوجّه إلى زاوية حي العبادلة ليجتمع بإخوانه الفقراء إلى الله، ويسبّح معهم في عوالم الحضرة الصوفية التي يقودها الحاج مجدوب، مقدّم الزاوية..."¹⁰، وقد حفظ القرآن الكريم منذ حداثة سنّه، عاش حياته ينشد من يده على ضريح والد جدّه الشيخ «محمد المنفي»، ليدفن بجواره، وتبرز هنا نزعة الوطنية الثورية في دعوة منه لابنه بالبحث عن ضريح جدّه المنفي والاهتمام بتاريخ أجداده وماضيهما المجيد .

-شخصية الحاجة صفية بنت شعبان البايك (والدة البطل): فهي الحضريّة العريقة النسب بنت «شعبان البايك» تمثّل نموذج للأمّ العربية بصفة عامة والجزائرية بصفة خاصة، والتي تتركس حياتها كلّها من أجل سعادة أبنائها، والتي قد تتماهى في حبّها لأبنائها لدرجة فرض سلطتها عليهم حتى في موضوع اختيار عروس لابنها الوحيد.

-شخصية عقيلة الكاف: نموذج الفتاة الجريئة، الساخطة على الرجال المنافقين الكذّابين و التي تستعمل كل الوسائل والأسلحة الأنثوية للظفر بعريس مناسب، لكن جهودها ضاعت سدى بسبب المنافسة الشديدة مع زميلاتها في العمل "كل صباح يوم عمل، تقابله عقيلة الكاف، بوجهها المهرق بالمساحيق الباهضة السعر، جرّبت المسكينة حيلا كثيرة لكسب قلب أيّ زميل لها ولم تفلح..."¹¹ ومن بين هؤلاء بطل الرواية «محمد شعبان» الذي رمت عليه شبّاكها في عديد المرات، لكن دون جدوى، فقلبه المكسوم دُفن تحت التراب منذ رحيل «صليحة الحلواجي»، لتحاول مجدّدا مع شخص يفوقها سنا، كان سببا في نهايتها بانتحارها بعد أن نال منها وغدرها.

- شخصية حلّمة كناك: نموذج الفتاة المفتحة، المثقفة، المعترّة بانتمائها العريق إلى الجزائر المكافحة، كانت كطيف أمل منشود، أعاد الحياة إلى قلب بطلنا المتعب، الذي أنهكتة السنون، وأوقفت نبضه الخافق بأنبال العواطف التي يعيش الرجل ويُنفي حياته لأجلها، حيث كانت اللحظات التي يقضيها معها على الفيس بوك، بصيص الأمل الوحيد في حياته المعتمّة .

- شخصية عبد الحليم الوقادي: رمز الرجل المثقف المتحرر، الجريء الغارق في عالم «جون بول سارتر»، و«عمر الحيتام» و«نيتشه» و«المعري» و«ابن عربي»...، الحالم ببناء دولة علمانية، ذلك الحالم الذي صار كابوساً أودى بحياته زمن العشرية السوداء "كان مثقفاً واعداً محباً للفلسفة والأدب والبحث العلمي... كان يفكر بصوت عال، لم يخف يوماً من إبداء آراءه الجريئة، كان يدعو لأفكار التحرر من التقاليد وبناء دولة علمانية..."¹².

- شخصية عمّار الحر: نموذج آخر للرجل المثقف المهووس بالكتابة والإبداع الروائي، يتزوج من امرأة متحررة، رغم أنّه محافظ.

- شخصية عاشور الزكري: نموذج ثالث للرجل المثقف، الباحث في التاريخ الوطني، الحريص على ضرورة كتابة التاريخ الوطني بكل حيثياته وبكل مصداقية والمحافظة على التراث، كي يبقى منارة للأجيال القادمة.

- شخصية الغتّام ولد اللّبة: حارس حظيرة السيارات، المعجب بشخصية «القذافي» الذي يلقبه بـ«الشهيد»، نموذج حيّ للشباب الجزائري الساخط على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي آلت إليها البلاد، والذي يغتنم أول فرصة للهجرة للخارج (الخرقة) من أجل تحقيق أحلامه المزعومة في عالم مجهول.

- شخصية فاروق البايك: خال «أحمد شعبان»، رمز الرفعة والغرور والتكبر، ونموذج للرجل الأرستقراطي ذو العرق العثماني، والذي حرم أخته «الحاجة صفية» (والدة أحمد شعبان) من حقّها في الميراث، بسبب معارضته الشديدة لزواجها من معلّم الصبيان «الحاج عبد القوي»، الذي يراه دون مستواهم الأرستقراطي، شخصية لا تزال تعيش بعقب الماضي التليد للأتراك في الجزائر، لم يكن على وفاق لا مع ابن أخته ولا زوجها.

- شخصية الحاج سليمان الغشبي: المقاتل الانتهازي، الذي يسعى جاهداً لإعلاء مصلحته الخاصة على حساب السكان البسطاء الأبرياء مسلوبو الحقوق والكرامة، والذي ينتظر بفارق الصبر هدم العمارة الخامسة، من أجل تنفيذ مشروعه على أنقاضها وهو بناء مستشفى لجراحة القلب، بعدما تحصّل على وعد بالبيع من ديوان السكن.

إن الشخصيات في هذه الرواية كثيرة ومتعددة تبرز مدى غنى هذه المدونة بالأصوات، وقد كان لكل شخصية من هذه الشخصيات دور في المسار الحكائي، لكننا آثرنا أن نتطرق لأكثرها تفاعلاً مع الشخصية البطلة، من أجل إبراز أهمّ المواقف الإيديولوجية التي كانت المحرك الأساسي للصراع المتنامي داخل هذا المتن الروائي، والتي تعددت وتصادمت وتباينت اتجاهاتها بشكل يخدم البناء الفني والفكري للرواية من جهة، ومن جهة أخرى يصوّر ذلك الصراع الإيديولوجي داخل المجتمع الجزائري بكل أطيافه.

2-2- المواقف الإيديولوجية للشخصيات :

إن "مفهوم الايديولوجيا ليس مفهوماً عادياً يعبر عن واقع ملموس فيوصف وصفاً شافياً ، وليس مفهوماً متولداً عن بدييات فيحد حداً مجرداً . وإنما هو مفهوم اجتماعي تاريخي، وبالتالي يحمل في ذاته آثار تطورات وصراعات ومناظرات اجتماعية وسياسية عديدة"¹³ ، لذا فهي كما تعرف مجموعة من الأفكار والمعتقدات التي توجه سلوك مجموعة أو مجتمع معين، وتعبّر عن رؤيتهم للعالم وكيفية تنظيمه. وقد شتخص (باختين) الايديولوجيا في الرواية البوليفونية من خلال اللغة، بحيث "إنّ الكلمات منسوجة من خيوط إيديولوجية عديدة لا تخص، إنها لحة كلّ العلاقات المجتمعية بجميع مجالاتها"¹⁴. فاللغة في الرواية مشحونة بالايديولوجيات ، التي تتبدى في شكل تلك اللغات الاجتماعية التي تعكس تنوع الأنماط الفكرية واختلافها لدى المجتمعات والأفراد، فالتعدد اللغوي ينتج تعدداً في الايديولوجيات ، تكون نتيجته ذلك الصراع والتصادم الايديولوجي الذي يثري حوارية الرواية.

وفي رواية «شبح الكلدوني» تتصادم المواقف الايديولوجية وتتعارض بشكل صارخ، ففي حين يقبع بطلنا «أحمد شعبان» سليل «أحمد المنفي» رمز النضال والشجاعة والكفاح المرير ضدّ المستعمر، في دوامة من المشاكل الاجتماعية، والتردد في البحث عن ضريح جدّ والده، في موقف انهزامي سلبي، والرضوخ للواقع دون الجراءة على تغييره، نجد الفتاة «حليمة كناك» تعيش حياة نشطة في مزرعتها بكاليدونيا الجديدة، مستلهمة ذكرى جدّها المنفي هو الآخر من بلده الجزائر، دون أي مركّب نقص، بل كانت السبب المباشر في تحقّر «أحمد شعبان» للبحث عن ضريح جدّه، ومحاولة كتابة تاريخ المنفيين المغيب من طرف السلطات، و يظهر البعد الايديولوجي للبطل «أحمد شعبان» في كونه مثقف معارض و ناقد على الأوضاع الاجتماعية، والشخصية هنا كما يرى (باختين) "ليس مجرد كلمة حول نفسه هو بالذات، وحول الوسط الذي يحيط به مباشر، بل هو بالإضافة إلى ذلك كلمة حول العالم: إنه ليس ممارساً للوعي فحسب، بل هو صاحب مذهب إيديولوجي"¹⁵. وفي الحقيقة هذا النموذج قد يكون تصوير لحالة المثقفين اليوم الذين يرفضون واقع مجتمعاتهم دون أن تكون لهم القدرة على إحداث هذا التغيير لذلك نجد تلك الشخصية تميل إلى الانعزال لعدم استطاعتها التماشي مع الواقع المرير. وقد يكون هذا الصوت هو الصوت الايديولوجي للكاتب نفسه، لأن الرواية العربية والجزائرية تعرف باستعمال هذا النموذج من الشخصيات المثقفة الحاملة للوعي القائم والتي تكون على دراية بمشكلات مجتمعاتها لكن ليس لديها القدرة على التغيير، لذا تكون شخصية ساخطة، انعزالية. وربما قد يعود توظيفها لأنها قد تمثل القارئ (المتلقي المثقف) نفسه فيجده يعبر عن مكنوناته اتجاه مجتمعه.

في مظهر آخر تظهر شخصية «الشيخ عبد القوي» والد «أحمد شعبان» ذات البعد الديني التصوّفي المحافظ، والفكر الوطني في محاولته لدفع ابنه إلى البحث عن انتاءه الثوري المتمثل في ضريح جدّه «أحمد المنفي» أحد قادة مقاومة «سيدي لزرق» بلحاج بالغرب الجزائري، يقابلها بعد إيديولوجي مناقض تماماً هو

وجهة نظر صديق البطل «عبد الحليم الوقادي» الشاب المثقف المتحرر الذي «كان يدعو لأفكار التحرر من التقاليد وبناء دولة علمانية، ويردّ آراء ومواقف روسو ونيشيه وسارتر وفلاسفة آخرين»¹⁶. يظهر في الرواية أيضا ذلك التقابل والتضاد بين شخصية «المعلمة زولة» الفتاة المحتشمة المنقبة الراضية بنصيبها، تقابلها «عقيلة الكاف» العانس المتحررة، و الباحثة عن الزوج بأية وسيلة كانت. هذا التضاد يبرز مدى التخطيط المجتمعي الذي نعيش فيه في ظل وجود تيارات دينية (معتدلة، متطرفة) وتيارات أخرى علمانية تحاول التملص والتحرر من كل الموروثات الدينية، ليبقى الشعب ضحية تلك الصراعات الأيديولوجية. تقابل وتضاد آخر في المواقف الأيديولوجية يصنعه «عاشور الزكري» الباحث الشغوف في التاريخ الثوري الجزائري المؤمن بقداصة هذا التاريخ الحافل، والداعي إلى إعادة كتابته بكل مصداقية لتقرأه الأجيال الصاعدة، والذي يقابله موقف «فتحي فكّك» رئيس مصلحة الكتاب بديوان الثقافة الذي أتهم بالاستيلا ب لأنه شكك في تاريخ المنفيين.

ومما سبق تتضح لنا تلك الحرية التي منحها الروائي لشخصه للتعبير عن مكنوناتها والإدلاء بمواقفها دون أي تدخل منه، ولا ترجيح كفة على أخرى في حيّاد تام منه .

2- 3- تعدّد الأساليب واللغات :

تعدّ الأساليب واللغات وعاء حاملا لعقائد وأفكار وثقافة مجتمع ما، فإنّ اللغة هي إحدى الركائز الأساسية في البناء الفني للرواية، فما تقوله الشخصيات داخل النص الروائي نستطيع تحديد طبيعة العلاقات القائمة بينها، كما نجد أنّ (باختين) يلج دائما على وجوب تخلّل مزيج من الخطابات المتنوّعة لغة الروائي، وكذلك استحضار الخطابات الغريبة من أجل الإقرار بالآراء الأخرى وإثراء هذه اللغة، وما يظهر جليا في رواية شبح الكليدوني هو ذلك التنوع والثراء اللغوي، والذي تمثّل في :

أ - اللغة العربية الفصحى : وهي اللغة الأساسية في الرواية، وقد جاءت بألفاظ بسيطة مفهومة، ولم ترق إلى تلك اللغة الأدبية الحاملة، لأنّ الروائي يعالج قضايا اجتماعية وتاريخية انطلق فيها من رحم الواقع الجزائري البسيط بكل تناقضاته، رغم مروره بمرور أدبية لامعة كـ «ابن عربي» و «العقاد» و «أي العلاء المعري» الذي ورد له على لسان بطلنا «محمد شعبان» : "هذا ما جناه أي علي وما جنيث على أحد "

ب - اللهجة العامية : والتي نستشفها من خلال الأقوال المأثورة والأمثال والحكم والأغاني الشعبية التي رافقت الشخصية البطلة على طول المسار الروائي، مما يدلّ على مدى تشبع الكاتب بالثقافة الشعبية وغوصه بحثا في مكنوناتها، فأغنية «بي ضاق المور» للشيخ «عبد القادر بوراس»، والتي درجنا عمرا نسمعها، هي في حقيقتها أغنية ثورية مقتّعة تحكي حكاية أجدادنا المنفيين وتصف معاناتهم في الأسر، والتي يقول فيها :

لو كان بكيت ابطال رفدوهم في بابوز
راهم شقّ البخور ذاقين وخبرهم ينعاذ

راهم مسجونين في جزيرة وسط مجوز
عليهم الباب والقفل معمد تغاؤ
عظيمة نأش مستلسلين يمشوا بالكوز
جيش الروم معدتهم من بكرى حقاؤ.¹⁷

يقابلنا في الرواية أيضا مقطع ثان لأغنية تراثية تدور في نفس موضوع المنفى :

" قُولُوا لَأَمِّي مَا تَبْكِيْش ... يَا الْمُنْفَى "

" رَيِّي وَلَدُكَ مَا يَحْلِيْش ... يَا الْمُنْفَى " ¹⁸.

ويبرز في الرواية كذلك تعلق « الشيخ عند القوي » بالمدايح الدينية الصوفية وترديدها، ومنها شعر «سيدي قدور بن عمار»، من قبيل :

" ما جَا جَلُولُ ما جَاشْ سُلْطَانُ الْأَوْلِيَاءِ "

" ما جَا جَلُولُ بأَخْبَارُو عَاوُذُ عَلِيَّنا " ¹⁹.

يطالعنا الروائي بمثل شعبي جزائري، يحمل الكثير من الدلالات النفسية على لسان الشاب «الغنام ولد اللبة» أثناء تحاوره مع «محمد شعبان» حيث يقول :

" قَهْوَة وَقَاوُ خِيْزُ مِنَ السُّلْطَانِ فِي دَارُو " ²⁰.

وهو مثل لمن يؤثر القناعة والرضا بحاله ولا يطلب التغيير لما هو أحسن، بالرغم من أن «الغنام ولد اللبة» قفز في الأخير الهجرة والهروب من أوضاع الواقع السيء الذي أرهقه نفسيا ودفعه إلى المغامرة نحو المجهول .

تبرز حكمة أخرى ضمن حديث «كثوم الوادية» المرأة الضريرة، مع جارتها «الحاجة صفية بنت شعبان البايك»، والتي طالما حلمت بزواج ابنها «محمد شعبان» من ابنتها المعلمة المنقبة «زولة»، وذلك ردًا عليها حينما كشفت لها عن رغبتها في أن تدفن في مقبرة «سيدي عبد القادر» المحاذية لممارتهم، بالقرب من أهلها وأقاربها المدفونين هناك، لذلك فقد أبدت مخاوفها أن تموت في الحى الجديد وتدفن في مقبرة برمادية، فما كان ردّها إلّا أن قالت : " ... المكتوب في الجبين ما تمحيه يدين " ²¹.

ويظهر توظيف الكاتب من خلال روايته للشعر الشعبي الملحون في أبيات للشاعر الفحل والمقاوم «محمد بلخير» في قوله من رحم معاناة المنفى :

سَلَكْنَا يَا خَالَتِي مِنْ جَازٍ لَجَازٍ حَبْسِ الزُّومِي لَا تُحْلِيْ مُسْلِمٌ فِيهِ
وَيُوِي الحَبْسِ عِنْدِي إِلَّا يَفْكَازُ وَطَنُ الْعُرْجِيَّةِ وَالْأُلْدُ نُحْلِيَّةُ ²²

وقد أحسن الكاتب توظيف هذا الموروث الثقافي الجزائري بلغته العامية بما يخدم مضمون الرواية من ناحية نقل الأحداث كما هي في الواقع ، ومن ناحية أخرى جعل الرواية تجمع العديد من الأصوات التي تتفاعل داخلها لتعبّر عن آرائها وعواملها الداخلية بكلّ حرّية، وهنا نكون أيضا قد أبرزنا سمة فنيّة أخرى من سمات

الرواية البوليفونية وهو افتتاحها على أجناس أدبية أخرى، وهي ما يسميها (باختين) "بالأجناس التعبيرية المتخلّلة التي تعضد الجنس الرئيس (الرواية) باعتبارها بناء مركّباً" ²³.

ج - اللغة الفرنسية : تعتبر اللغة الفرنسية من ترسبات الاستعمار الفرنسي التي علقت بلهجتنا العامية لطول مدة مكوثه بالجزائر، حيث تبرز في حوار أحمد شعبان مع "الغثام ولد اللبة" في قوله : "jamais) جامي سيدي عقبة تونمب (tombe)، وهي عبارة توحى بالثقة والشموخ في وجه المصائب، ولكنها لا تعكس بأي وجه حالة «الغثام ولد اللبة» الذي يغتم أول فرصة الهرب من المشاكل والسفر نحو المجهول.

من هنا نجد أن الروائي استخدم أساليب متنوعة ولغة مزج فيها بين العربية الفصحى والعامية، واللغة الفرنسية كموروث ثقافي استعماري، مما يحدث تناغم في مخيلة القارئ ويجعله يعيش الأحداث دونما تكلف لغوي.

2- 4- فضاء العتبة :

فضاء العتبة عند (باختين) هو ذلك الفضاء الذي يقع بين/بين والذي تعيش وسطه تلك الشخصيات التي لا تستطيع الحسم في قراراتها، لأنها تعيش صراعاً داخلياً وخارجياً حاداً، ويعرف جميل حمداوي هذا الفضاء في قوله: " من المعلوم أنّ فضاء العتبة (seuil)، في الرواية البوليفونية، هو فضاء الصدمات والأزمات والمشاكل العضوية والنفسية، بمعنى أنّ الأماكن التي يعيش فيها البطل، أو التي ينتقل عبرها، هي أماكن موحشة وعدوانية، تثير الاشمئزاز والقلق والغثيان والموت، وتعبير آخر فضاء العتبة هو فضاء الكوارث التي تعصف بالإنسان المقهور داخل مجتمع محبط، تنعدم فيه القيم الأصيلة، وتهمين عليه العلاقات التشيئية الرأسمالية" ²⁴.

وفي روايتنا يعيش البطل «أحمد شعبان» دوامة نفسية في جو خافق من المشاكل التي حاصرت، بالإضافة إلى شبح جدّه «الكليدوني» الذي يلاحقه في كلّ مكان مع إلحاح والده الشيخ عبد القوي عليه بالبحث عن ضريحه، فهو فريسة لعدّة أماكن عدوانية وموحشة أولها الشقة التي ولد بها في العمارة الخامسة بحي الربوة "هنا في الغرفة الضيقة، يخفي غربته القاتلة عن أهله ومعارفه، محتضناً مخاوفه ووساوسه، تمنى مراراً لو كان نسياً منسياً، فكّر ذات يوم، أن يرمي بنفسه من النافذة ليتخلص من هواجسه المربكة..." ²⁵، المكان الثاني الذي زاد من تورّم وضعه النفسي هو مكتبته في ديوان الثقافة وتلقّيه لأوامر مديره «قادة الشريك» ، هذا الأخير الذي أرهقه بنصائحه وملاحظاته وأوامره التي كانت سبباً في هروبه من الوظيفة وتخلّيه عنها، فقد كانت قيّداً خانقاً له ولطموحاته لسنوات عديدة .

مكان ثالث زاره البطل أثناء رحلته في البحث عن ضريح جدّ والده «أحمد المنفي» هو الكتاب الذي كان الشيخ يدرّس فيه القرآن لصبيبة القرية سراً، والذي تجرّه ودمره «الجنرال الفرطاس» الفرنسي. أثناء مدهامته للقرية في أمل القضاء على الشيخ «المنفي» الذي هرب رفقة بعض تلامذته ونجا بأعجوبة من الموت المحقق . لكن بالرغم من فرحة «أحمد شعبان» بإيجاده لآثار الكتاب، إلّا أنّه "استقلّ سيارته التي تحركت في الطريق المعبد،

وغادر المنطقة وهو يشعر برغبة في البكاء، تلبسته حالة غامضة مزّقت قلبه الذي ازداد يأسا²⁶، بسبب الإهمال الذي طال معالمنا التاريخية التي صارت عرضة للطمس بسبب عدم مبالاة السلطات لهذا الجانب الحي من تاريخنا الثوري المجيد، والذي يجب أن يكتب ليبقى منارة للأجيال الصاعدة، فالحالة السيئة للكتاب هي التي أثارت حفيظة البطل، وزرعت الحزن في قلبه المثقل بالهموم أصلا.

المكان الرابع الذي كان يظن «محمد شعبان» أنه سوف يجلب له السعادة هو وعائلته ويكون ملاذهم الآمن، هو السكن الجديد الذي منحتهم إياهم البلدية، لكن تفاجأ باحتلاله -أثناء غيابه- من طرف أخته «فريدة» وأسرتها له ومزاحمتهم له فيه بعد أن طردوا من السكن الوظيفي الذي كانوا يعيشون فيه لسنوات، حيث أصبح هذا المكان -الذي كان نبيله حلما - مصدر إزعاج وقلق دائمين لبطلنا، بل كان القطرة التي أفاضت الكأس، حيث يقرر «محمد شعبان» بيع سيارته وقطعة الأرض الوحيدة التي امتلكها في حياته من أجل السفر بعيدا نحو جزيرة كاليدونيا الجديدة عند فتاته «حليمة كناك» التي طالما دعت له لزيارتها في مزرعتها، ومعاينة تاريخ أجداده المنفيين عن قرب.

2-5- تعدد المنظورات السردية :

يعرف المنظور السردى بأنه الخاصية التي يتم بها إظهار طريقة السرد، والتبين إن كان السرد موضوعيا أو ذاتيا، والكشف كذلك عن اطلاع المؤلف على كل ما تقوم به الشخصيات أم أنه ليس له معرفة بها إلا القليل فقط، وبالتالي فإن الراوي إما أن يكون أكبر من الشخصية الروائية، أو أصغر منها أو يساويها، وقد اختلف النقاد والدارسين في تسمية هذا المكون السردى من الرؤية السردية إلى زاوية الرؤية إلى موقع السارد إلى التبئير...²⁷، إلى مصطلح ثالث هو المنظور السردى.

ولعل من أبرز النقاد الذين اهتموا بدراسات السرد نجد الناقد البلغاري «تريفيتان تودوروف» الذي يقول في هذا الشأن: "إننا ونحن نقرأ عملا أدبيا تخيليا، لا ندرك الأحداث التي يدركها إدراكا مباشرا، ففي ذات الوقت الذي ندرك فيه هذه الأحداث، ندرك أيضا و -إن بكيفية مختلفة - الإدراك الحاصل عنها لدى الذي يحكيها، وإذا استخدمت عبارة مظاهر السرد، فإننا نحيل بها على مختلف أنواع هذه الإدراكات التي يمكن التعرف عليها داخل السرد (أخذين كلمة مظهر aspect هنا بمعنى قريب من معناها الاشتقاقي وهو «الرؤية» أو «النظرة»، وبكيفية أكثر تحديدا، نقول إن المظهر aspect يعكس العلاقة بين ضمير الغائب il (في القصة)، وبين ضمير المتكلم je (في الخطاب)، أي العلاقة بين الشخصية الروائية والسارد"²⁸. ويصنف «تودوروف» تريفيتان «مظاهر السرد ثلاثة أصناف هي كالآتي :

- 1) الرؤية من الخلف (السارد أكبر من الشخصية الروائية) : في هذه الحالة يكون السارد أكثر معرفة من الشخصية الروائية، إنه يرى ما يجري خلف الجدران كما يرى ما يجري في ذهن بطله وما يشعر به في

نفسه، وتظهر تلك الشمولية في المعرفة لدى السارد، إما في معرفته بالرغبات السرية لدى إحدى شخصياته الروائية التي قد تكون غير واعية برغباتها، أو في معرفته لأفكار شخصيات كثيرة في آن واحد، وأما في سرد أحداث لا تدركها الشخصية الروائية بمفردها، إنه سارد عالم بكل شيء وحاضر في كل مكان²⁹. وبالتالي فالسارد له دراية بكل ما يجول بخاطر الشخصية فهو عالم بكل حركاتها وسكناتها وحتى ما يختلج داخلها من شعور

وإذا ما عدنا إلى الرواية موضوع الدراسة نجد أن الكاتب قسمها إلى ثلاثة وعشرون مقطعاً، في المقطع الأول من الرواية على سبيل المثال، يدخل أعماق البطل إذ يقول: "...وضع رأسه الصغير بين يديه الضعيفتين وانتظر أن يزايله الدوار اللعين الذي لازمه منذ الصباح. أحسّ بثقل رأسه بعد استيقاظه من نوم مضطرب، وقد أرجع سببه إلى السهر إذ قضى جلّ الليل في سهر مطوّل، عبر الفيسبوك مع "الجمّة كناك" أو "حليمة طاييب" الفتاة المخربة البتّة العينية التي تسلّلت مصادفة إلى قلبه المتعب"³⁰.

وفي مقطع آخر يدخل أعماق فكره المضطرب فيقول: "ألتقى «أحمد شعبان» عقب سيجارة مارلبورو من على الشرفة المهترئة وتهدّ متضابقاً، هجرت الطمأنينة قلبه، صار ينفعل بسرعة، لا يتحمّل النقد حتى من مديره، ويكره النظرات الوقحة التي تراقب حركاته وهندامه وسيارته الجديدة، عدّته الحيرة من هذا العالم المقيت، وسكنته الرغبة في الهجرة والنوبان في الكون الفسيح، تمنى لو كان ثرياً فيغادر الوطن في طائرة نقّاة، ويقضي حياته كلّها في السفريين بلدان غريبة عنه..."³¹

من خلال هذين المقطعين واللذين استعمل فيهما السارد ضمير الغائب كمؤشر أول على الرؤية من الخلف، والتي من مظاهرها أنّه على دراية ومعرفة شاملة بما يدور في قرارة نفس البطل (لا يتحمّل النقد من مديره)، كما يعرف نواياه ورغباته الخفية (الرغبة في الهجرة والنوبان في العالم الفسيح)، ويعرف ما يعصف بقلبه من مشاعر نفسية وأحاسيس داخلية (التي تسلّلت مصادفة إلى قلبه المتعب)، (عدّته الحيرة)، (يكره النظرات الوقحة)، وهو أيضاً صاحب نظرة استشرافية إذ يستشعر ما يدور في ذهن البطل وما يفكر فيه (سعيد ما كتبه)، فهو في هذه الحالة عالم بكل ما يخص الشخصية من قريب أو بعيد، لأنّه حاضر معها في كلّ مكان ويعرف أكثر مما تعرف هي عن نفسها.

2) الرؤية مع (السارد = الشخصية الروائية): في هذا المظهر الثاني نجد السارد يملك نفس المقدار من المعرفة التي تملكها الشخصية الروائية، ولا يستطيع أن يمدّ القارئ بتفسير للأحداث قبل أن تتوصّل إليه الشخصية الروائية نفسها، والمؤشر الأول في هذه الرؤية هو استعمال ضمير المتكلم، حيث تقوم الشخصية بسرد الأحداث بنفسها كما هو الحال في السيرة الذاتية، أما المؤشر الثاني فهو استعمال ضمير الغائب، شرط أن تكون الشخصية الروائية والسارد على نفس القدر من المعرفة، كما يكونان متصاحبان في صيرورة الأحداث، ولذلك يسمّيها أيضاً بعض النقاد بالرؤية المصاحبة³².

ونجد هذا المظهر من السرد في روايتنا بنسبة كبيرة، فالسارد على طول مسار الرواية، يتحدث بضمير الغائب عن جميع الشخصيات: "كان يحبّ استفزازه فيناديه ب "ولد الطالب " فقط . لم ينس فاروق البايك، المتقاعد من الشركة الوطنية للكهرباء والغاز، حقه على عبد القوي المنفي الذي تزوّج ابنة شعبان البايك بالرغم من معارضة عائلتها. سحرها كما كان فاروق البايك يردّد أمام والده الذي رضي بالأمر الواقع وزوّج ابنته لمعلم الصبيان"³³. فالسارد في هذا المقطع يعرف الكثير عن شخصية «فاروق البايك» (خال أحمد شعبان) وعمّا يحول في خاطره من أفكار وهواجس، وما يحسّ به من أحاسيس التكبر والغرور والترفع عن البسطاء من الناس، لكنه لا يعطينا تفسيراً لما يحدث إلا بعد أن تتوصّل إليه هذه الشخصية، وبالتالي فإنّ معرفته مساوية لمعرفة شخصية «فاروق البايك» بنفسه وتصرفاته وأحواله، و السارد هنا شاهد على الأحداث وليس شخصية مساهمة في أحداث الرواية .

في مقطع آخر من الرواية يلجأ السارد إلى استعمال ضمير المتكلم لشخصية أسطورية ومحورية في الرواية، رغم عدم معاشتها لأحداث الرواية، إلّا أنّها كانت المحور الأساسي الذي قامت عليه من بدايتها حتى نهايتها، فهي شخصية تاريخية من القرن التاسع عشر، مثّلت المقاومة الشعبية الجزائرية ، وما عاناه قادتها من تنكيل وتشريد ونفي من طرف المستعمر الغاشم وهي شخصية «محمد المنفي» جدّ والد «محمد شعبان» والتي من بين ما جاء على لسانها من خلال إحدى الرسائل الثلاث التي بعثها من منفاه في كاليدونيا الجديدة: "صراحة وأنا في هذا البر المسمى كاليدونيا، أشعر بالحزن الشديد ولا أدأويه إلّا بتلاوة القرآن الكريم والتسبيح، والتفكير فيما قمنا به من العمل والجهاد فتزداد ثقتي بالله وأتذكر أيام شيخنا الشهيد الأجد سيدي لزرق بلحاج رضي الله عنه وبركات سادتي الصالحين"³⁴. استعمال السارد الذي هو شخصية مساهمة في أحداث القصة (الاسترجاع) ضمير المتكلم المفرد (أنا، أشعر، أدأويه، ثقتي، أتذكر) من أجل التعبير عمّا عاناه من ويلات التعذيب والتنكيل في منفاه الذي فرضه الاستعمار الفرنسي- على كل قادة المقاومة الجزائرية، وما نهش داخله من أحاسيس الشوق للوطن والأحبة، فالشخصية الروائية في هذا المقطع هي السارد نفسه.

3)الرؤية من الخارج (السارد أصغر من الشخصية الروائية) : في هذا المظهر الثالث من مظاهر السرد، يكون السارد أقلّ علماً ومعرفة ممّا تعرفه أيّ شخصية من الشخصيات الروائية، بحيث يصف لنا ما يراه وما يسمعه فقط، دون الولوج إلى دواخل الشخصية ومعرفة ما يدور بذهنها أو ما يختلجها من شعور، وقد يبدو لنا أنّ هذا النوع من السرد الذي ينحصر في هذا الوصف الحسي الخارجي، غير فعال وغير معقول، ولكنه موجود بالفعل كنموذج لنوع من أنواع الكتابة، ولكن بصورة أقلّ بكثير من أنواع السرد الأخرى.³⁵

يظهر هذا المظهر من السرد في روايتنا في مقاطع قليلة منها على سبيل المثال: "حين دخل جامعا العتيق، وجد رجالا بالبستهم البيضاء ملتفين حول الشيخ «سي العباس»، وهو شيخ سبعيني قوي البنية، يضع على كتفيه برنسا أبيضاً، ويهناه اليمنى سبعة خضراء كان يحرك حباتها بهدوء، وبجنبه جلس كهل أثق يرتدي عباءة فوقية فضفاضة وسروالا عريفاً، وعمامة كنبوش، علم من الشيخ «البودالي» أنه إمام الجامع".³⁶

السارد في هذا المقطع يصف لنا وضعية جلوس الشيخ «سي العباس» والرجال من حوله، وطريقة لباسهم وصفاً حسياً خارجياً دونما أي تطرق لما يجول في خاطر الشيخ ومن حوله من أفكار أو ما يبحش داخلهم من أحاسيس، ولكن هذا المظهر من السرد الذي يجعل من السارد على معرفة قليلة بالشخصية من الشخصية الروائية نفسها موجود في الرواية بنسبة قليلة مقارنة مع المظهرين السابقين.

لقد كان لمظاهر السرد الثلاث (الروية من الداخل - الرؤية من الخارج - الرؤية مع) التي وظفها الروائي الفضل في تمكنا من إدراك وفهم أحداث الرواية، فبواسطتها يستطيع القارئ معرفة حياة الشخصيات الروائية، ودرجة تفاعلها فيما بينها وتصادمها إيديولوجياً.

خاتمة :

بعد هذه الدراسة المتواضعة لرواية «شبح الكليدوني» للروائي الجزائري «محمد مفلح» وفق منهج حاول أن يلامس المنهج البنوي التكويني، قصدنا فيها دراسة الشخصيات الروائية لإبراز رؤية العالم للكاتب الجزائري، وفق منظور متعدد الأصوات والرؤى، وذلك قصد إظهار السمات الفنية البوليفونية للرواية الجزائرية ما بعد الكولونيالية. وقد توصلنا في هذا البحث إلى مجموعة من النتائج ندرجها كآلاتي :

- رواية «شبح الكليدوني» ضرب من الكتابة التاريخية التوثيقية لتاريخ المنفيين الجزائريين المغتربين عمداً من طرف جهات كثيرة استطاع صاحبها هدم جدار النمطية في الكتابة الجزائرية، والعودة والدعوة إلى إعادة كتابة التاريخ الجزائري الثوري الحافل لتقرأ الأجيال الصاعدة وليكون لها منارة تهتدي بها في رسم أبعاد المستقبل.

- تبرز الروح الوطنية للروائي الذي أراد أن يفصح لنا من خلال روايته بعض الجرائم الشنيعة التي ارتكبها الاستعمار الفرنسي الغاشم في حق الأبرياء من أبناء شعبنا الجزائري، تلك الجرائم التي تسعى فرنسا وبعض عملائها أن تبقى طي الكتمان، لكن الروائي هنا يناشد الطبقة المثقفة أن تعيد البحث عن تاريخنا المغترب وإعادة كتابته وكشف فضائح فرنسا الغاشمة.

- انطوت الرواية على مجموعة من المواقف الإيديولوجية عبر عدة أساليب تبرز تعدد الأصوات داخلها، وهذه التعددية الأسلوبية واللغوية تضمن عدم هيمنة إيديولوجية الكاتب وعدم فرض زاوية رؤية واحدة له، بل تتيح هذه التعددية مساحة واسعة من الحرية للتصادم والتجاوز بين هاته الإيديولوجيات داخل المتن الروائي.

- الرواية كانت مزيجاً من عدة مواد متنافرة وغير متجانسة، جعلتها موسوعة ثقافية، وذلك من خلال تضمينها من طرف الروائي عدة أجناس أدبية متخللة (الشعر الملحون - الأمثال والحكم - الأغنية الشعبية - الشعر

الفصيح). والتي ما هي إلا دليل على سعة ثقافة الشاعر و حسن اطلاعه على الموروث الثقافي الجزائري واعتزازه به.

- يظهر الصوت الطاغى في الخطاب الروائي الجزائري ما بعد الكولونيالي ممثلا في الصوت الناقم على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتردية - وهو صوت معظم الشباب الجزائري اليوم - والباحث عن الهوية الضائعة المغيب تاريخها عمدا من طرف بعض الجهات التي لازالت تطيل جبل الودّ مع فرنسا خدمة لمصالحها الخاصة.

- رواية «شبح الكليدوني» رواية اشتملت على أغلب السمات الفنية للرواية الحوارية البوليفونية من تعدّد للشخصيات المتحاورّة بينها والمتصادمة إيديولوجيا دونما تدخل من الروائي الذي فصح لها المجال واسعا للتعبير عن مكنوناتها، وما يختلج دواخلها انطلاقا من الواقع الجزائري المعيش الذي نقلت صورته وأوضاعه نقلا آمينا، وعبرت عنه أصدق تعبير، كما وفق الروائي «محمد مفلح» أنّما توفيق في توظيف الموروث الثقافي الجزائري خاصة التراث الصوفي للغرب الجزائري في وقفة هادفة منه للرجوع إلى هذا الموروث والنهل منه بما يخدم مضمون الرواية مما جعل من روايته «شبح الكليدوني» رواية بوليفونية بكل امتياز. وهي نتيجة توصلنا إليها من خلال نتائج بحثنا المتواضع والتي نرجو أن تكون فاتحة لتساؤلات وأبحاث أخرى .

هوامش:

¹ - تودوروف تزفيتان، باختين: المبدأ الحوارى، تر: فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان ط2، 1996، ص 16 .

² - ينظر: وغلبي يوسف، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، منشورات الإختلاف، الجزائر-الجزائر، ط1، 2009، ص 391-392 .

³ - تودوروف تزفيتان، باختين: المبدأ الحوارى، ص 16-17 .

⁴ - ينظر: حمداوي، الرواية البوليفونية أو المتعدّدة الأصوات، 2012، شبكة الألوكة <http://www.alukah.net/literature> 18:20 2024/02/15

⁵ - باختين ميخائيل (1986)، شعرية دوستوفسكي، (ط1)، دارتوبقال، الدار البيضاء-المغرب، دار الشؤون الثقافية، بغداد-العراق، ص 59.

⁶ - جميل حمداوي، الرواية البوليفونية أو المتعدّدة الأصوات، شبكة الألوكة، 2012 <http://www.alukah.net/literature> langage/0/39038.

⁷ - الرويلي ميجان - البازعي سعد، (2002)، دليل الناقد الأدبي، (ط3)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء -المغرب، بيروت -لبنان، ص 318.

- ⁸ - مفلح محمد (2015)، شبح الكلدوني، (ط1)، دار المنتهى، الجزائر- الجزائر ص14.
- ⁹ - المصدر نفسه، ص20.
- ¹⁰ - المصدر نفسه، ص27.
- ¹¹ - المصدر نفسه، ص25.
- ¹² - المصدر نفسه، ص21.
- ¹³ - عبد الله العروي (1988)، مفهوم الأيدولوجيا، الادلوجة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص05
- ¹⁴ - ينظر: باختين ميخائيل، (1986)، شعرية دوستوفسكي، (ط1)، دار توبقال، دار الشؤون الثقافية، الدار البيضاء، المغرب، العراق - ص ص 29 30 .
- ¹⁵ - باختين ميخائيل، (1986)، شعرية دوستوفسكي، ص111
- ¹⁶ - مفلح محمد، شبح الكلدوني، ص21.
- ¹⁷ - المصدر نفسه، ص ص 42 43.
- ¹⁸ - المصدر نفسه، ص7.
- ¹⁹ - المصدر نفسه، ص27.
- ²⁰ - المصدر نفسه، ص 50.
- ²¹ - المصدر نفسه، ص10.
- ²² - المصدر نفسه، ص98.
- ²³ - جميل جمداوي، الرواية البوليغونية أو الرواية المتعددة الأصوات .
- ²⁴ - جمداوي، جميل، " النظرية الشكلانية في الأدب والنقد والفن "، مج 1-99، جامع الكتب الإسلامية، <https://ketabonline.com/ar/books/96828/read?page=28>
- ²⁵ - مفلح محمد، شبح الكلدوني، ص14.
- ²⁶ - المصدر نفسه، ص100.
- ²⁷ - بلهاقي الطيب، (2016)، "الرؤية السردية كمكون أساسي في الخطاب الروائي"، مجلة المعيار، العدد15، ص122.
- ²⁸ - تودوروف، تزفيتان، (1992)، مقولات السرد الأدبي، ضمن طرائق تحليل السرد الأدبي، (ط1)، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، المغرب، ص58.
- ²⁹ - بوغزة محمد، (2010)، تحليل النص السردى (تقنيات ومفاهيم)، (ط1)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان، لادار الأمان المغرب - الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر- الجزائر، ص 76.
- ³⁰ - مفلح محمد، شبح الكلدوني، ص5.
- ³¹ - المصدر نفسه، ص21.
- ³² - بوغزة محمد، تحليل النص السردى (تقنيات ومفاهيم)، ص ص 79 80.
- ³³ - مفلح محمد، شبح الكلدوني، ص63.

- ³⁴ - المصدر نفسه، ص 38.
³⁵ - تودوروف، تزفيتان، مقولات السرد الأدبي، ضمن طرائق تحليل السرد الأدبي، ص 59.
³⁶ - مفلح محمد، شبح الكلدوني، ص 109.

قائمة المراجع:

1. باختين ميخائيل، (1986)، شعرية دوستوفسكي، (ط1)، دار توبقال، دار الشؤون الثقافية، الدار البيضاء، بغداد - العراق .
2. باختين ميخائيل، (1986)، الماركسية وفلسفة اللغة، (ط1)، دار توبقال، الدار البيضاء - المغرب
3. بلهافي الطيب، (2016)، "الرؤية السردية ككثون أساسي في الخطاب الروائي"، مجلة المعيار، العدد 15
4. بويزة محمد، (2010)، تحليل النص السردى (تقنيات ومفاهيم)، (ط1)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت - لبنان، دار الأمان المغرب - الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر- الجزائر .
5. تودوروف تزفيتان، (1992)، مقولات السرد الأدبي، ضمن طرائق تحليل السرد الأدبي، (ط1)، منشورات اتحاد كتّاب المغرب، الرباط، المغرب .
6. تودوروف تزفيتان، (1996) باختين: المبدأ الحوارى، تر: فخري صالح، (ط2) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان.
7. حمداوي، جميل، " النظرية الشكلانية في الأدب والنقد والفن "، مج 1-99، جامع الكتب الإسلامية، <https://ketabonline.com/ar/books/96828/read?page=28>
8. حمداوي جميل، (2012)، الرواية البوليفونية أو المتعددة الأصوات، شبكة الألوكة، <http://www.alukah.net/literature>
9. عبد الله العروى (1988)، مفهوم الادبولوجيا، الادلوجة، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، المغرب.
10. الرويلي ميجان - البازعي سعد، (2002)، دليل الناقد الأدبي، (ط3)، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء - المغرب، بيروت - لبنان .
11. مفلح محمد (2015)، شبح الكلدوني (رواية)، (ط1)، دار المنتهى، الجزائر- الجزائر .